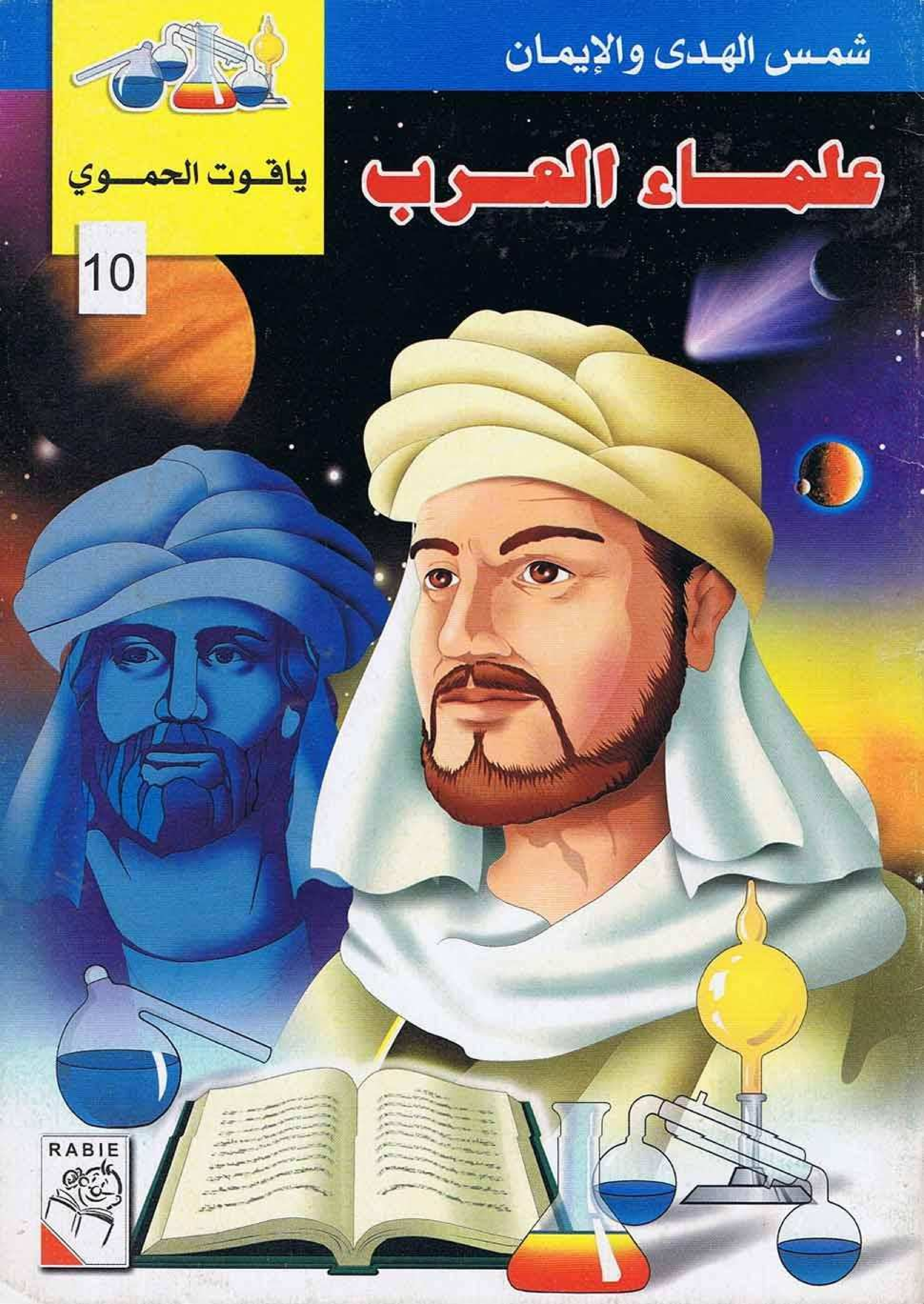


شمس الهدى والإيمان
علماء العرب
ياقوت الحموي
10
RABIE

شمس الهدى والإيمان

علماء العرب

1 - 16 جزءاً

ياقوت الحموي

تأليف

محمد كمال



ياقوت الحموي

الفتى المملوك

أمسكَ التاجرُ عسكرُ بنُ أبي نَصْرٍ الحَمَويُّ بيدِ الفتى ، بعد أن اشتراه من أحدِ الباعةِ في أسواق بغدادَ ، وسألهُ عن أصلِهِ واسمِهِ ، فتلعثمَ هذا الفتى ، ولم يُجبْ إلا بأنه من بلادِ الرُّوم ، وأنه لا يعرف شيئاً عن أجْدادِه ، وأن اسمَه ياقوتُ ، فتبسَّم التاجرُ عسكرٌ في وجهِهِ ، ثم مضى بِهِ إلى مَتْجَرِه .

إنه شِهابُ الدين ، أبو عبدِ الله ، ياقوتُ بنُ عبدِ الله الذي يُنسَبُ إلى حَماة ، لا لأنه وُلِدَ فيها ، ولكنْ لأن مولاه الذي اشتراه في بغدادَ من أصل حَمَويٍّ .

ولد ياقوتُ الحَمَوي سنة 575 هـ - 1179 م ، ونشأ في كَنَفِ سيِّدهِ عَسكرَ الحَمَوي ، الذي كان لا يُحسِنُ الخَطَّ ، ولا يُجيدُ القراءة ، ولا يَحذق غيرَ التجارة ، وحين اشترى هذا الفتى الصغيرَ ، أراد أن يُكمِّلَ هذا النقصَ الذي يُحسُّ بِهِ ، فدفعه إلى الكُتَّابِ ليتعلّمَ القراءةَ والكتابةَ ومبادئَ الحساب ، لعلّه يُعينُه في قضايا البيع والشراء ، وضبط الدفاتر التجاريّةِ .

وما هي إلا أشهرٌ قليلةٌ حتى أخذَ هذا الغلام يقرأ ويكتبُ ويحسب من غيرِ تلكُّؤٍ ولا تعثُّرٍ .



ولكنَّ ياقوتَ ، هذا الفتى النابهَ ، لم يكتفِ بهذه المبادئِ الأوَّليةِ في التعليم ، بل أخذ يتسلَّل إلى مجالس العلماءِ والفقهاء والأدباء ، ويتلقّى بذهنه المتفتّح وعقله الناضج مختلِفَ صُنوفِ العلم والمعرفة ، كالنحْوِ واللغة والأدب ، من غير أن يفرِّط بواجباتِهِ التجاريّة نحو مولاه عسْكرٍ الحَمَوي

الرَّحَلاتُ التِّجاريّةُ

شَبَّ ياقوتُ ، واشتدَّ عُودُه ، واكتملتْ صفاتُه ، واتّسعت خِبرتُه ، فأخذ سيِّده يصحَبُه معه في بعض الرِّحلاتِ التجارية ، ويعرِّفه إلى عُملائه في شتّى البلاد ، ويكلِّفه بضبطِ الحسابات وتسجيل معاملات البيع والشراء ، فكان ياقوتُ نِعْمَ الصاحبُ ونِعْمَ الحاسِبُ .

فلما وَثِق عَسْكَرٌ منه واطمأن إليه ، قرر أن يبعثَه وحْدَه إلى بعض الأقطار نيابةً عنه ، ليتفرغَ هو إلى أعمالهِ في بغداد . فقامَ ياقوتُ بعدَّة رِحلاتٍ تجارية إلى عُمانَ والشامِ والخليج العربيّ ، تعرّف فيها على خصائص كل بلدٍ وتقاليدِ أهله . وكان أكثرَ ما يَلْفِت نظرَه في تلك البلدان طبيعتُها الجغرافيَّةُ ، وموقِعُها من البحر أو اليابسة ، وجوُّها الحارُّ أو البارد ، وما فيها من مكتباتٍ وعلماءَ وأدباء ، فكان كلما عاد إلى بغداد ، اختلى بنفسه ، وجعل يسجِّل ملاحظاتِه ومذكراته ، وهو فَرِحٌ بكل ما شاهدَ وما سمعَ ، مبتهجٌ بما جَلَب معه في تلك الرحلات من كتب ومخطوطات ، يلتقط منها الفوائدَ المهمَّة ، والمعلومات المفيدةَ ، فينسخُها ، ويحتفظُ بها في أوراقه الخاصة .

تحرير ياقوت

ولما بلغ ياقوتُ الواحدةَ والعشرين من عمرهِ ، حدثت جَفْوةٌ وخلافٌ بينه وبينَ مولاه عسكرٍ ، ولكنَّ هذه الجفوةَ كانت سبباً في أن ينالَ ياقوتُ

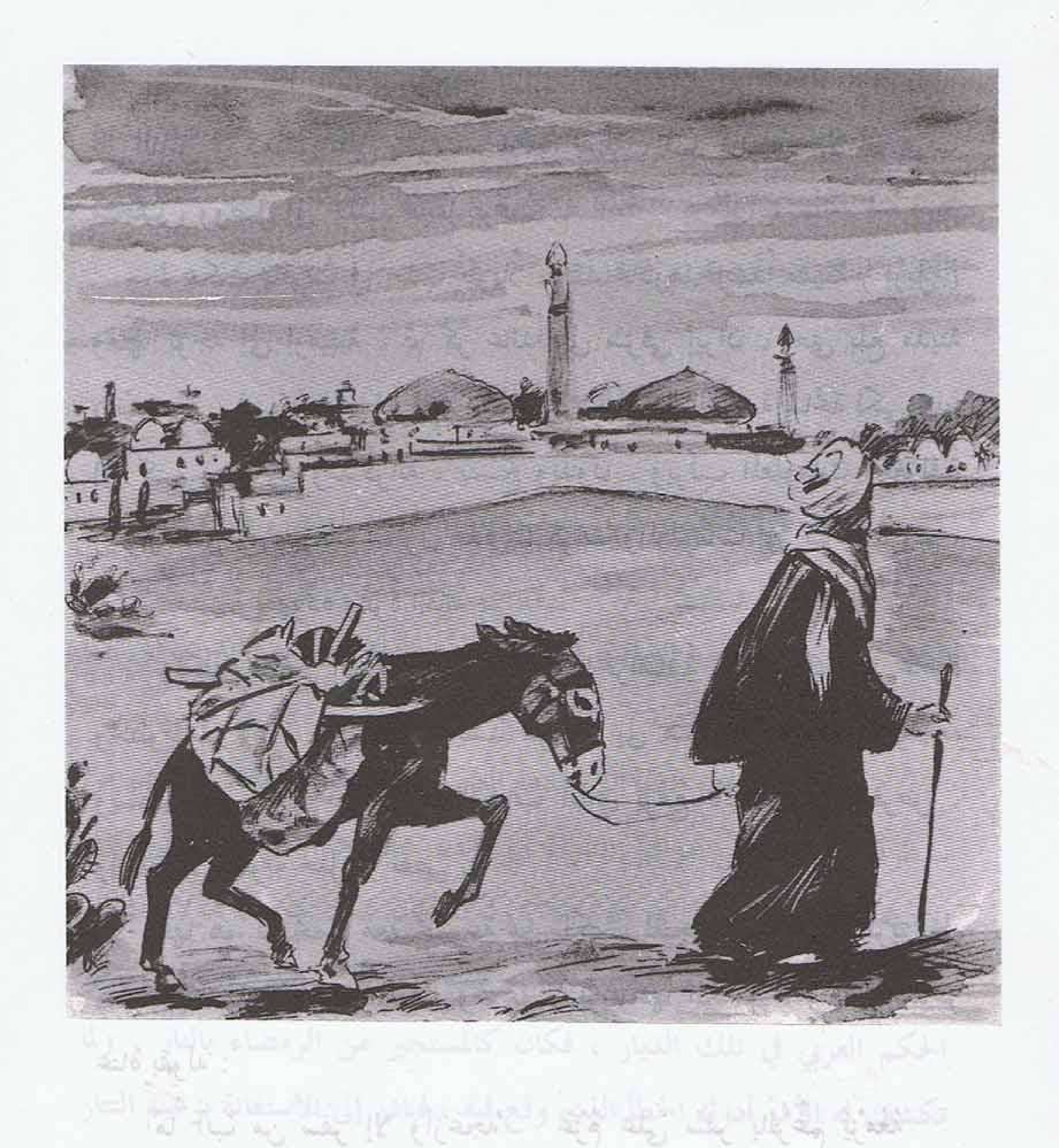
حرّيته وينفردَ بنفسه ، فقد رأى التاجر عسكر أن من الخير له أن يُعتِقَ مملوكَه ياقوتَ ، ويحرِّره من عبوديته ، إشفاقاً عليه واعْترافاً بفضله .

أحسَّ ياقوتُ بالفاقة والعُدْم ، وبدأ يفكر بعمل يحصِّل منه قُوتَ يومه وثَمن لباسه ومعاشِهِ ، فلم يجدْ بُداً من العمل بنسخ الكتب بالأُجرة وبيعِها إلى المتأدبين والعلماء . ولكن هذه المهنة لم تفِ بحاجته ، ولم تسدَّ رَمَقَهُ ، فرقَّ له قَلب عسكرٍ ، ومنحه شيئاً من المال يتاجر به ، وبعثه إلى جزيرةِ (كيش) الواقعةِ في بحر عُمانَ في الخليجِ العربي .

غيرَ أن ياقوتَ لم يَنسَ المعروفَ ولم يتنكّرْ للجميلِ ، فقد رجع من رحلتِهِ تلك إلى بغدادَ ، ففوجئ بأنَ عسكراً ، سيِّدَه القديمَ ، قد فارقَ الحياةَ ، فحمَل ياقوت المالَ الذي معه وردَّه إلى زوجة عَسكرٍ وأولاده ، فكان برّاً بهم سخِيّاً عليهم واحتفظَ لنفسه بشيء من هذا المال .

الرحّالةُ العَالِم

كانت رحلات ياقوتَ السابقةُ قد ولَّدتْ في نفسه حُبَّ السفر ولذَّة الاكتشاف ، غير أنه أعرض عن التجارة التي كان يزاولُها من قبل ، ورأى أن من الأوفق له أن يزاولَ تجارة تلبِّي احتياجاته الماديةَ واحتياجاته العقلية في آن واحد . وهل هناك من تجارةٍ تفي بهذه الرغبةِ سوى تجارةِ الكتب ؟ لا سيما وقد آنسَ في نفسه نزوعاً إلى المطالعةِ وميْلاً إلى التأليف .



كانَ ياقوتُ في السابعةِ والثلاثينَ من عمره حين يَمَّم شطرَ (تبْريزَ) في بلاد فارسَ ، ثم رجع إلى الموصل ، ومنها إلى دِمَشقَ ، وهناك جرت بينه وبين أحد العلماء مناظرة دينية حادَّة ، فاشتدَّ الخلاف وتعالتِ الأصواتُ ، حتى

ثار الناسُ في دمشقَ على ياقوتَ ، وهمُّوا بقَتْلهِ ، فما كان منه إلا أن هرب متخفّياً ، ووصل إلى حلب خائفاً يترقّبْ .

لم يمكثْ ياقوتُ في حلبَ طويلاً ، فقد غادرَها قاصداً مدينة (إِرْبلَ) ومنها توجه إلى إرمينية ، ثم كرَّ عائداً إلى شرقي إيران ، حتى بلغ مدينة (نيْسابور) فتزوَّجَ واستقرَّ فيها مدة سنتين ، فوجد الفرصة سانحة لكي يخلوَ إلى كتبه ومراجعه ومذكّراته ، ينسخ ويدوّن ، ويرتّب المعلوماتِ الجغرافيةَ ويبوِّبُها ، وهو يحلم بأن تتحول هذه المذكراتُ والمعلوماتُ إلى كتابٍ ضخمٍ ، يكون حصيلةَ جهوده وثمرةَ أبحاثه .

ولكنه يسمع أن مدينة (مَرْوَ) الخراسانيةَ تضم مكتباتٍ عامرةً ومخطوطات نادرةً ، فلماذا لا يَشُدُّ الرِّحالَ إلى هناك ، ليستكملَ مراجعَه ويستتمَّ تحصيلَه ، حتى يكونَ الكتابُ الذي يُزمِعُ تأليفَه أوفى بالغرض ، وأجدرَ ألاَّ يشوبَهُ خَلَلٌ أو نَقْصٌ .

فها هو ذا يحملُ معه مجموعةً من الكتب للتجارة ، ويعبر الطريقَ إلى (مرو) بهمَّة لا يثنيها المَللُ ، وعزيمة لا يزعزعها الكَسَلُ ، وكأن الشاعر عناهُ بقوله :

ما آبَ من سَفَرٍ إلا وأزعَجَهُ   عَزْمٌ على سَفَرٍ بالرُّغْم يُزْمِعُهُ

وهناك في مَرْوَ أقامَ سنتين ، أمضاهما بالمطالعة والتأليف ونَسخِ الكتب والمراجع ، منشرحَ الصدر ، ناعمَ البال ، حتى قالَ : (فكنتُ أَرْتَع فيها ، وأقتَبِسُ من فوائدها ، وأنساني حبُّها كل بَلَد ، وألهاني عن الأهْلِ والوَلَد) .

غير أنه لابد له من السفر ، فتجارة الكتب هي المصدر الوحيد الذي يجني منه المال ، ويطعم الأُسرة والعيال ، فجهز نفسه ، ومعه أحمال من الكتب النادرة واتجه نحو (خُوارزْم) .

هجوم التتار

في سنة 616 هـ كانَ ياقوتُ مقيماً في خُوارَزْمَ ، يتاجر بالكتب ويواصل مطالعاتِه وأبحاثَه ، وإذا به يسمع فجأةً بأن التتارَ قد ثاروا لاجتياح البلادِ وقتلِ الأبرياء من العباد ، فانتابه الذُّعْرُ والقَلَق ، وهو لا يدري إلى أين يفرُّ ، ولا إلى أيِّ بلدٍ يقصد .

وكان سبب خروجهم أن الخليفةَ الناصرَ لدين الله في بغدادَ قد سئم من سيطرة الأتراكِ على مرافقِ الدولة ووظائفِ الحكومة ، فهداه تفكيرُه إلى الاستعانة بالملوك الفرس في خوارزم ، ولكنه كان غافلاً عن أن هؤلاء الملوكَ كانت لهم أطماعٌ خفيَّة ومقاصدُ غير مَرْضِيَّةٍ في احتلال بغداد والقضاء على الحكم العربي في تلك الديار ، فكان كالمستجيرِ من الرمضاء بالنار . ولما تكشف له الأمرُ أدرك الخطأ الذي وقع فيه ، فبادر إلى الاستعانة بزعيم التتار جنكيز خان .

انطلق جنكيز خان بنفسٍ لا تعرف الرحمةَ ولا الشفقةَ ، على رأس جيشه الكثيفِ المتوحش ، يمر بالبلدان الفارسية ، يُحرق المبانيَ ويدمِّر القلاعَ ويهدِّم المنازل ، وفي نيَّته الاستيلاء على البلاد الإسلامية واحتلالُها .

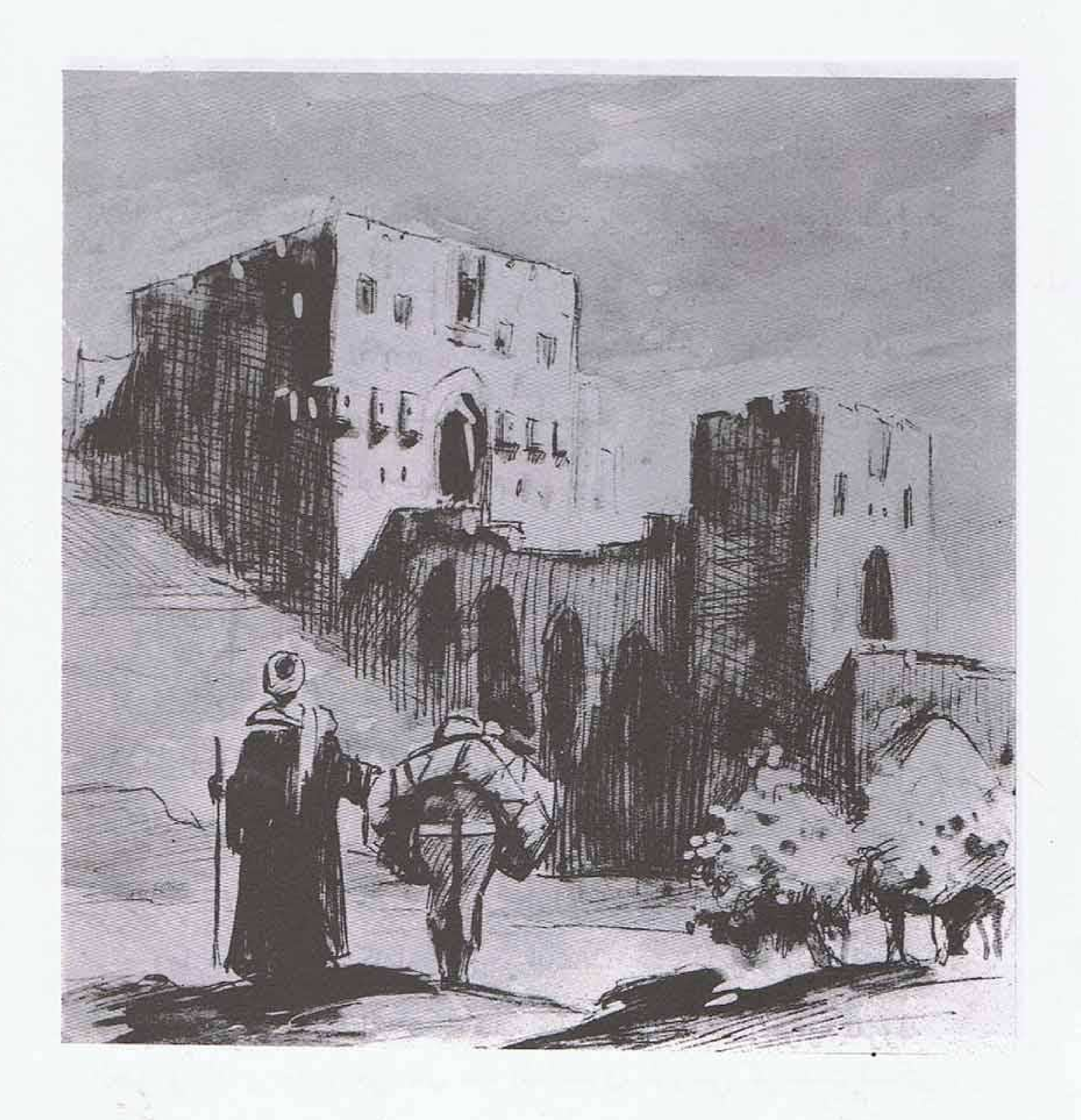
فما كان من ياقوت إلا أن سارع إلى الهرب من خوارزم ، فانهزم بنفسه كبَعْثه يومَ المَحْشَرِ من رَمْسِه ، تاركاً في خوارزم كتبَه الغاليةَ ودفاترَه الثمينةَ ، متحسِّراً عليها ، متأسِّفاً على ما سطَّره فيها من ملاحظاته ومذكراته . فقاسى في طريقه من المضايقة والتعب ما يكِلُّ عن شرحه إذا ذَكَرَه ووَصَفَه .

فظل يتنقَّل من مروَ إلى قزوينَ إلى تبريزَ ، وأخبارُ الاجتياح التتريّ تُقِضُّ مَضْجَعَه وتلاحقه أينما حلَّ وحيثما نزَلَ ، إلى أن بلغَ مدينةَ المَوْصِلِ فقيراً مُعْدَماً ، لا يملك شيئاً من مالٍ ولا بُلْغةً من طعام .

فنهض أهلُ الموصل إلى استقباله واستضافته وحمايته ، مطَمْئنين إيَّاه أن جنكيز خان لن يصل إلى هذه المدينة ، ولن يطرُقَ أسوارَها . إلا أنه لم تفارِقْه الوساوسُ والمخاوف ، فما إن استقرَّ فيها بضعة أيام حتى تحركت في نفسه نوازعُ الرحيل والسفر ، فأخذ يفكر بالتوجُّه إلى مكان آخرَ يجد فيه أماناً من خوفٍ واستقراراً من تشتتٍ ، ليُتمَّ كتابَه (معجمَ البلدان) . ولكن إلى أين ؟

الرحلة إلى حلب

كان ياقوتُ قد زار حلبَ الشهباءَ من قَبْلُ ، وأُعجِب بها ، فلماذا لا يتوجَّه الآن إليها ، ولماذا لا يكتب إلى عالِمها الجليل ، ووزيرِها الفاضل ، عليِّ بن يوسفَ القِفْطيِّ ، وهو من هو شأناً وعزّاً وتقرّباً من السلطان الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي ! .



أمسكَ ياقوتُ بالقلم ، وخطَّ رسالة إلى الوزير القِفطِيِّ تُعَدُّ رائعةً من روائع الأدب الرفيع ، لِما اشتملت عليهِ من صدقٍ في التعبير ، ودقَّةٍ في وصف الفظائع والمجازر التي تمت على يد التتار ، وأسفٍ على ما حلَّ بالبلدان الإسلامية من الخراب والدمار ، يقول فيها :

– ..إلى أن حدثَ بخراسانَ ما حدث من الخراب والوَيْل ، وكانت بلاداً مُونقةَ الأرجاء ، رائعةَ الأنحاء ، ذاتَ رياض أَرِيضةٍ ، وأَهوِية صحيحة ، لقد تغنَّت أطيارُها ، فتمايلتْ طرباً أشجارُها .. فجاس خِلالَ تلك الديار أهلُ الكفر والإلحاد ، وتحكَّم في تلك الأستارِ أهلُ الزَّيْغ والعِناد ، فأصبحتْ تلك القصورُ كالَمحْوِ من السطور ، وأمستْ تلك الأوطانُ مأوًى للأصداءِ والغِرْبان ، يتجاوب في نواحيها البوم ..

تنكَّرَنِي دهري ولم أَدرِ أنني   أعِزُّ وأحداثُ الزمانِ تَهونُ
وباتَ يُريني الخَطْبُ كيف اعتداؤُه   وبِتُ أُريه الصَّبْرَ كيف يَكونُ

وفي عام 620 كان ياقوتُ في ضيافة الوزير القِفْطي في حلبَ ، يلقى منه كلَّ إكرام وترحيب ، فاتخذَ لنفسه خاناً في ناحيةٍ من نواحي حلب ، وعكفَ على ما تبقّى في يديهِ من أوراق ، وما أسعَفتْه به ذاكرتُه من معلومات ، يستجمعُ موادَّ كتابه الواسعِ ويضع المسوَّدةَ الأخيرةَ له .

وما هو إلا عامٌ كاملٌ حتى تمَّ الكِتابُ بفصوله وأبوابه ، فحمله إلى الوزير القِفْطيِّ ، وقدَّمه إليه هديةً سنيَّةً ، اعترافاً بفضله ، وإقراراً بمعروفه .

معجم البلدانِ

يقول ياقوتُ في مقدِّمةِ كتابه ، شارحاً مَنْهَجَه العلميَّ وطريقَتَه في البحثِ :



– (أما بعدُ ، فهذا كتابٌ في أسماءِ البلدان ، والجبالِ والأوديةِ والقِيْعان ، والقرى والمحالّ والأوطانِ ، والبِحارِ والأنهارِ والغُدْران ، والأصنام والأَبداد والأوثان . لم أقصدْ بتأليفهِ ، وأصْمُدْ نفسي لتصنيفه لَهْواً ولا لَعِباً ، ولا رغبةً حثّتني إليه ولا رَهَباً .. ولكن رأيتُ التصدّيَ لهُ واجباً ، والانتدابَ

له مع المقدرةِ عليه فَرْضاً لازِباً ، أَوْقفني عليهِ العزيزُ الكريمُ ، وَهَداني إليهِ النبأُ العظيمُ ، وهو قولُه عزَّ وجلَّ ، حين أراد أن يعرِّفَ عبادَه آياته ومَثُلاته ، ويقيمَ الحُجَّةَ عليهم في إنْزالهِ بهم أليمَ نَقماته :

﴿ أَفَلَمْ يَسيرُوا في الأرضِ فتكونَ لهم قلوبٌ يَعقِلون بها ، أو آذانٌ يسمعُون بها ، فإنها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصُّدور ﴾ .

وفي هذا الكتابِ يرتِّب ياقوتُ أسماءَ البلدانِ بحسَبِ حروفِ المُعجَم ، ويعرِضُ أسماء بعضِ العلماء والشعراء فيها ، ويبين الزمنَ الذي تمَّ فيه فتحُ البَلَد على يَدِ المسلمين ، وما في هذا البلد من آثارٍ خالدة ، وماتضمُّه أرضُه من أنهارٍ ومزروعاتٍ .. إلى غير ذلك من الفوائدِ الجغرافيَّةِ والمعلومات التاريخيّة .

لقد تجاوزَ ياقوتُ نِطاقَ الجغرافية ليغدوَ كتابُه مرجِعاً أدبيّاً وتاريخيّاً واجتماعيّاً مهمّاً ، لأنه أودعَ فيه من الأبياتِ الشعريّة ، والأخبارِ التاريخيّة ، والأحداثِ الاجتماعيّة ، ما يُمتِعُ الذوقَ ويُسلّي النفسَ ويفيدُ العقلَ في آنٍ واحد ، حتّى قال عنه المستشرقُ الروسي كراتشكوفسكي :

– وأهمّيةُ معجمِ ياقوتَ تجاوزُ حدودَ الأهدافِ الجغرافيّة الضيّقة ، فهو يمثّل آخرَ انعكاسٍ لتلك الوحدةِ المثاليّة للعالمِ الإسلامي تحت حُكمِ العبّاسيّين .

معجم الأدباء

ذكرَتْ لنا كتبُ التراجم أنَّ ياقوتَ خلَّف لنا تسعةَ كتب في شتى مجالات المعرفة ، لعلَّ من أهمِّها بعدَ كتابه معجم البلدان كتابَ معجم الأدباء ، وهو كتاب مطبوعٌ متداولٌ ، يقول فيه :

- (وجمعتُ في هذا الكتاب ما وقع لي من أخبار النحويين واللغويين ، والقُرَّاءِ المشهورين ، والأخباريين والمؤرِّخين والورَّاقين المعروفين ، والكُتَّاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل المدوَّنةِ ، وأربابِ الخُطوطِ المنسوبةِ والمعيَّنة ، وكلِّ مَنْ صنَّف في الأدب تصنيفاً ، أو جمع منه تأليفاً) .

وقد رتَّبه أيضاً على حروف الهجاء ليكون عوناً للباحثين ومرجعاً للدارسين .

نهاية الرحلة

جعلَ ياقوتُ مدينةَ حَلَبَ مستقرّاً له ومَقَاماً ، لا يخرج منها إلا لِماماً ، إذ طابت له الحياة فيها ، وفتنَتْه قلعَتُها الشامخةُ ، وأغرَتْه مجالِسُ العلماء والفقهاء في رُبوعِها ، إلى أن وافاه الأجل المحتومُ ، والقضاء المرسومُ في

سنة 626 هـ – 1229 م بعد أن تبرع بمكتبتهِ العامرة لمسجد بغدادَ ، فقام بتنفيذ وصيته هذه المؤرخُ العربيُّ الشَّهيرُ ، أبو الحَسن عليُّ بنُ الأثير .

علماء العرب

سلسلة قصصية تروي الجانب الهام من حياة علماء العرب الذين كانوا وما زالوا مجال العزة والفخار.



1 - جابر بن حيان
2 - زرياب
3 - الكندي
4 - الجاحظ
5 - أبو بكر الرازي
6 - الفارابي
7 - ابن سينا
8 - الحسن بن الهيثم
9 - البيروني
10 - ياقوت الحموي
11 - الشريف الادريسي
12 - ابن الأثير
13 - ابن بطوطة
14 - ابن خلدون
15 - الجبرتي
16 - عبد الرحمن الكواكبي

تأليف: محمد كمال
الغلاف: هيثم فرحات

K1G1-16



تم نشرها من قبل دار ربيع للنشر حلب ، سوريا

Published by Rabie Publishing House Aleppo , Syria
P.O.Box : 7381 Tel : +963 21 2640151 Fax : 2640153
E-mail : rabie@rabie-pub.com WWW.rabie-pub.com

